اتجاهات علم النفس الروسي

التحول من علم النفس الانعكاسي إلى علم النفس الثقافي – الاجتماعي

بديع القشاعلة

تلخيص:

لقد اقتصرت معارف الغرب في ميدان علم النفس الروسي على بعض الأسماء لعلماء روس مع بعض الإشارات الخاطفة إلى بعض أعمالهم. وقد أدى هذا الوضع بالكثيرين إلى أن يقرنوا علم النفس هناك ببعض دراسات سيتشينوف وبافلوف وبيختيرف وتطبيقاتها في ميدان التربية والتعليم، وبالتالي إلى إنكار أي وجود لهذا العلم هناك. ولقد عزا الباحثون الغربيون سبب غياب علم النفس في الاتحاد السوفيتي إلى تدخل السلطة هناك والحظر الذي فرضته على الباحثين والعلماء لوقف نشاطهم ومنعهم من الاستمرار في الدراسات النفسية، وهم، بذلك، يشيرون إلى القرار الذي اتخذته القيادة السوفيتية بشأن وقف العمل ببعض طرق البحث السيكولوجي، مدعين بأن هذا الإجراء إنما يشمل ميادين علم النفس كافة، ويضع حدًا للقيام بأي نشاط في أيٍّ منها. ولهذا، وحسب زعمهم، فإنه لا مجال للحديث عن دراسات نفسية على نحو ما هو قائم في دول الغرب. ونجد انه على العكس من ذلك فقد بحث العلماء والمفكرين الروس الجوانب النفسية منذ القياصرة إلى الاتحاد السوفييتي وحتى يومنا هذا، كما واستطاعوا المساهمة في تحديد معالم علم النفس العالمي بصورة كبيرة. ونجد العديد من الاتجاهات والمدارس التي فسرت السلوك الإنساني، كما وأنشأت المراكز البحثية في ميدان العلوم السلوكية كمعهد علم النفس في موسكو وأقسام علم النفس في جامعات موسكو وسانت بطرس بورغ وكازان واديسا وخاركوف. وسنعرض آراء ومواقف أبرز المفكرين الروس في ما يمس الجانب السيكولوجي وما قدموه لنمو وتقدم علم النفس العالمي.

تمهيد :

لقد كتب عالم النفس والمفكر الروسي ياروشييفسكي في عام 1966 كتابًا قيمًا في تاريخ علم النفس والذي قدم فيه نظرة شاملة حول نمو وتطور الأفكار النفسية منذ القدم عندما ظهرت الحكمة الصينية والهندية واليونانية حتى بنى علم النفس لنفسه القواعد كعلم مستقل بحد ذاته. وكذلك تحدث ياروشييفسكي عن مرور علم النفس بالفلسفة والفكر الذي ظهر في الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ، وذكر في كتابه مدارس علم النفس ونظرياته التي نمت وتطورت حتى منتصف الستينات من القرن العشرين (عامود، 2001).

لقد نشأ علم النفس الروسي في مختبرات الطب والفيزيولوجيا كما واعتمد نموه وتطوره على العلوم الاجتماعية والفلسفة والانتروبولوجيا والمنطق.

يقول أوشينسكي إن علم النفس يحتل مرتبة رفيعة وعالية بين العلوم الأخرى وله قيمة كبيرة في التربية الخاصة، كما ويرى أن معرفة خصائص الإنسان النفسية تساعد على عملية تربيته، ونادى دائمًا بدراسة الظواهر النفسية ونموها بهدف توجيهها كما وان فهمها يساعد على عملية التعامل معها (Ушинский К.Д. 1988).

يشير كيدروف في كتاباته إلى أن علم النفس يكّون مثلثًا هامًا مع العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والفلسفة (كيدروف، 1965). كما ويقول سيتشينوف إلى أن ما نجده في علم النفس لا نجده في العلوم الأخرى (Се́ченов И. М.,1902).

أن الحقائق التاريخية تبرهن بصورة قاطعة على وجود حركة علمية سيكولوجية نشطة ومتنامية في روسيا القيصرية، وأنه من غير المكن أن ينظر إلى نشاط علماء النفس الروس بمعزل عن نشاط زملائهم في بلدان أخرى، وأن علم النفس الروسي هو، بالتالي، جزء لا يتجزأ من علم النفس العالمي. ولقد كان وراء تلك الحركة عدد كبير من الأسماء. فإلى جانب سيتشينوف وبافلوف وبختيرف وفاغنر نجد اينكو، تشيج، جيلبانوف، رادلوف، روسوليمو، زينكوفسكي، فيدينسكي، غروت، كويسمان، كورساكوف، لوباتين، لوسكي، ليسغافت وغيرهم. ولعلَّ أهم ما ميّز الحركة السيكولوجية في روسيا خلال عقود ما قبل الثورة الاشتراكية هو تعدّد الاتجاهات التي كانت تشتمل عليها وتعارض أفكار ممثليها.

إنَّ عدد العاملين في علم النفس في روسيا بعد الثورة الاشتراكية كان يتزايد باضطراد. فإلى جانب العلماء الذين ينتمون إلى الجيل القديم أمثال ايفانوفسكي وجيلبانوف وروبنشتين وروسوليمو وفاغنر ونيجايف ولانج التحق بمؤسسات علم النفس عدد كبير من الشباب المتحمس أمثال بلونسكي، دوبرينين، روديك، كارنيلوف، ليفيتوف، رينيكوف، سميرنوف، شيفاريف، فورتوناتوف وفيرسنز في موسكو، إفروسي، باسوف، بولتونوف وميأسيشيف في سانت بطرس بورغ، اوزنادزي في تبيليسي (عاصمة جورجيا) وفيجوتسكي في خاركوف وموسكو. وقد كرس هؤلاء جهودهم لإقامة علم النفس الروسي وتحديد مصيره.

علم النفس في روسيا قبل الثورة الاشتراكية:

لم تمنع السلطات السوفييتية البحث في كافة ميادين علم النفس وذلك كما يعتقد الكثير بل نجد ان عددًا كبيرًا من علماء النفس الروس اشتغلوا في زمن السوفييت في المجالات النفسية والعقلية كما وتزايدت المراكز المختصة بدراسة العلوم النفسية وازداد عدد العاملين فيها. رغم هذا نجد أن علماء النفس الغربيين

لم يعيروا أي انتباه ملحوظ لما كان يقوم به علماء النفس السوفييت والروس. بل إنهم كانوا ينفون وجود ما هو مثير للمتابعة في ميدان علم النفس الروسي (عامود، 2001). ونجد الدليل الواضح على هذا في تعبير عالم النفس جان بياجية عن الأسف لعدم تمكنه من قراءة النقد الذي وجه إلى نظرياته من قبل عالم النفس الروسي فيجوتسكي إلا بعد عقود.

إن علم النفس في روسيا قبل 1917 كان جزءًا من علم النفس الغربي، وقد ظهر عدد من العلماء والمفكرين الروس الذين اشتغلوا في ميادين علم النفس، نذكر منهم :

لومونوسوف (1711-1765)

ظهر المفكر الروسي لومونوسوف في روسيا القيصرية وكان لعائلة فقيرة في منطقة ارخانغلسك الواقعة في أقصى الشمال الروسي. وقد تخرج لومونوسوف من المعهد العالي للغات في موسكو ثم اتجه إلى سانت بطرس بورغ ليتابع تحصيله الأكاديمي. اهتم لومونوسوف بالفيزياء والكيمياء والتعدين إلى جانب العلوم الاجتماعية والنفسية واللغة والأدب (عامود، 2001). ويعد له الفضل في إنشاء وتأسيس جامعة موسكو والتي سميت فيما بعد على اسمه.

قام لومونوسوف بدراسات عديدة في مجال علم النفس، إذ نسب نشوء الإدراك الحسي عند الإنسان إلى وجود سائل حيوي موجود في الأعصاب وهو دائم الحركة، لا يعرف التوقف أو السكون (عامود، 2001). واعتقد أن هذه الحركة تعمل على إبلاغ الدماغ بما يجري في النهايات العصبية من تغييرات بسبب البيئة الخارجية. كما ويعتقد لومونوسوف أن المعرفة تبدأ بالتجربة ، فالتجربة هي المصدر الأساسي لكل ما يمتلكه الإنسان من معلومات عن البيئة الخارجية. وهو يؤمن بأن التجربة تفيد الإنسان بصورة أكبر من الأفكار المجردة، (Ломоносов М.В, 1991) .

يرى لومونوسوف أن للغة دور كبير في النشاطات النفسية والعمليات المعرفية والعقلية. إن الإنسان بفضل اللغة يرتقي بعقله وفكره، والعلاقة بين اللغة والتفكير علاقة متبادلة لا يمكن عزل واحدة عن الأخرى. كما وحاول لومونوسوف البحث في الانفعالات والعواطف، وهو يربط بينها وبين الفيزيولوجيا.

لقد أسهم لومونوسوف في نشوء الجدلية في علم النفس وهو بهذا يفتح الباب على مصرعيه أمام الكثير من العلماء والباحثين للإدلاء بآرائهم وأفكارهم حول تفسير المظاهر السلوكية. وهو بهذا يعتبر قاعدة من قواعد الفكر السيكولوجي في روسيا.

الكساندر نيكولايفتش راديشييف (1749-1802)

ولد راديشييف في موسكو وتعلم في مدارسها، وقد اطلع على أعمال ودراسات المفكرين الفرنسيين في لايبزغ خلال دراسته هناك. بعد عودته إلى روسيا شغل بعض المناصب الحكومية ثم نشر العديد من الكتابات التي تظهر جبروت وظلم القيصر، فعانى من ظلم السلطة فترة من الزمن ثم انتحر عام 1802.

أسس راديشييف تصوراته وأفكاره عن الوعي الإنساني على أساس مادي (عامود، 2001). حيث أشار إلى أن الدماغ هو عضو الفكر والنشاط المعرفي، ولا يمكن أن نحدد موضع الوظائف النفسية فيه. وذلك اعتمادًا على العلوم التشريحية في تلك الفترة.

ربط راديشييف نمو وتطور النشاطات النفسية عند الإنسان بالمثيرات التي يستقبلها الجهاز الحسي من البيئة المحيطه ويرسلها إلى الدماغ. وهو يحدد البيئة المحيطة بالمناخ والخصائص المكانية ، ظروف الحياة، الأشياء والناس (عامود، 2001). هذه العناصر تؤثر على النفس البشرية وتحدد تكوينه النفسي. وللإنسان دور فعال وقدرة على الابتكار والإبداع. ويقول: " إن الأشياء الخارجية تؤثر فينا دومًا بالقياس مع علاقتها بنا" (Радищев А. Н., 1952).

تأثر راديشييف بأفكار لوك وتعاليمه فكان دائمًا يشير إلى ذلك في أقواله. فكان يقول: "إن التجارب هي الأساس الحقيقي لمعرفتنا الطبيعية" (Радищев А. Н., 1952). إن الأفكار المجردة هي ثمرة النشاط العقلي الذي يجري في داخلنا. وقد وجد راديشييف مستويين من المعرفة :

الأول : المعرفة الحسية ، والثاني : المعرفة الاستدلالية، وهذين المستويين مترابطين. كما ووجد فارق شاسع بين القدرات الحسية (البصر، السمع، اللمس) التي يمتلكها الإنسان وما يقابلها لدى الحيوان. وذهب إلى أن تطور الإدراك لدى الإنسان يعود إلى النشاطات المختلفة التي يمارسها كالنشاط الفني (الرسم، الموسيقى، النحت ..) (عامود، 2001).

أما اللغة عند راديشييف فإنها من أهم العوامل التي تساهم في ارتقاء الجنس البشري وهي الأداة التي لا يمتلكها سوى الإنسان، هذه الأداة تمد الفكر بأسباب التطور، ويرى راديشييف الإنسان كائن اجتماعي وهو مخلوق لكي يعيش في المجتمع، وللمجتمع مسؤولية كبيرة في تطوره في النواحي المختلفة الجسمية، العقلية، الانفعالية، العاطفية والإرادية (عامود، 2001).

إن الإنسان كما يقول راديشييف يتميز عن الحيوان بما يصدر عنه من أفعال وتصرفات تعكس مشاعره التعاطفية ونزعته إلى التعاون مع الآخرين. كما واهتم راديشييف بموضوع المواهب والاستعدادات ويشير إلى تفاوت الناس الفطري في الطبع والبيئة العصبية والاستثارة. وللمجتمع دوره الهام في تنمية وتطور المواهب والقدرات. لقد كان لآراء راديشييف وأفكاره صدى شاسع في أرجاء روسيا وهو بأفكاره يرمز إلى أهمية البيئة الخارجية والمجتمع في تحديد السلوك الإنساني ، هذه الأفكار كانت الأساس لكثير من علماء النفس الروس في بناء تصوراتهم حول بناء وتحديد علم النفس.

الكسندر ايفانوفيتش غيرتسن (1812–1870)

ولد غيرتسن في موسكو لعائلة ثرية. تعلم في جامعة موسكو. وقد اعتقل من قبل السلطات بتهمة محاولة الانقلاب عليها ونفي إلى مدينة فياتكا وهناك كتب العديد من مؤلفاته منها : " التسطيح في العلم"، "رسائل في دراسة الطبيعة"، " دكتور كروبوف" وغيرها .

آمن غيرتسن بوحدة الوجود وماديته وآمن بوحدة مصير المجتمعات البشرية. وقد نظر إلى علاقة النفس بالجسد باعتبارها وحدة متكاملة (عامود، 2001). وهو ينفي أن يكون الوعي مستقل عن الجسد. ورأى أن عضو الوعي هو الدماغ وأداته . وأشار غيرتسن إلى أن الفيزيولوجيا هي التي تبحث مبنى الدماغ وتركيبه وان علم النفس يهتم بالظواهر النفسية من حيث ارتباطها بالجهاز العصبي . وآمن بالتعاون بين هذين المجالين. ويعتقد غيرتسن ان المادة والتاريخ تنتج الفكر والنفس (Герцен А.И. , 1990).

أسس غيرتسن نظريته في المعرفة على قاعدة الصلة والعلاقة المتبادلة بين مستوياتها الحسية والعقلية. ويعتقد أنه لا يمكن أن نفصل بين المعرفة والحس أو العكس. فالإنسان عندما يحس بشيء ما فانه يدرك ما يحسه ويعيه وذلك بفضل الفكر (عامود، 2001). يقول غيرتسن:"التجربة والتبصر هما مستويان لازمان وواقعيان للمعرفة " (Герцен А.И. , 1954).

ويرى كذلك الوحدة بين الحس والعقل والتي تظهر في الوحدة بين الفكر والكلمة، فالإنسان عندما يعبر عن الفكرة بواسطة الكلمة المنطوقة أو المكتوبة فانه يضع أمامه صورة واضحة لأفكاره. ويعتقد أن الفرد يستطيع أن يجد لكل فكرة ما يناسبها من الكلمات ، ولا يوجد فكرة لا يمكن قولها بوضوح وهذا يتعلق بوضوح الفكرة أولاً . ويقول غيرتسن:" لا توجد علوم صعبة وإنما توجد كتابات صعبة" (Герцен А.И. , 1954).

ويجد غيرتسن أن للظروف الحياتية والبيئية المحيطة دورًا هامًا في تطور الفرد. ويرى أن الفرد طرفًا فعالاً في هذه المعادلة. إن الفرد يستطيع أن يتحكم في مصيره إن كان واعيًا ، فبقدر ما يكون وعيه عاليًا يكون وجوده الذاتي كبيرًا ، وقدرته على توجيه مصيره كبيره (عامود، 2001).

استطاع غيرتسن أن يغرس فكرة الربط بين السيكولوجيا والفيزيولوجيا الأمر الذي وجه عدد من الباحثين تجاه هذه الفكرة ومحاولة دراستها .

فيساريون غريغوريفتش بيلينسكي (1811-1848)

بيلينسكي، ولد لأسرة متواضعة، تعلم في مدينة جيمبار ثم في مدينة بنزا وأكمل دراسته في جامعة موسكو. آمن بيلينسكي بأن انتشار العلم والتعليم هو غاية يجب الوصول إليها ولا يمكن إدراكها إن عاش الإنسان تحت ظروف الطغيان والتسلط.

ويرى بيلينسكي أن الوعي هو نتاج عمل الدماغ ، ورأى رابطًا بين الفيزيولوجيا وعلم النفس. وقد اهتم بيلينسكي بمجال الشخصية وتطورها، وهو يحددها بأنها هي كل ما يقدمه الواقع الموضوعي للعمليات النفسية كالعقل والإرادة والمشاعر وما يتركه عليها من بصمات. وكما أن ظروف الناس مختلفة فان ما يقدمه الواقع لكل منهم مختلف وما يتركه من آثار وبصمات مختلف، بالتالي فان الشخصيات تختلف في مبناها وتكوينها (عامود، 2001).

إن الشخصية القوية والفعالة، بالنسبة لبيلينسكي، هي التي تحدد لها اتجاه واضح يوجهها ويميزها عن غيرها. ولا بد للشخصية أن تسعى إلى موضوع معين كي تكون شخصية حية وذات مغزى. وعليها ان تتجه إلى هدف ما وتسعى إلى تحقيقه.

يقول بيلينسكي: " كل إنسان عظيم إنما ينجز عمل زمانه، ويحل مسائل عصره، وهو يجسد بنشاطه روح الزمان الذي ولد وترعرع فيه ".(Белинский В.Г., 1953). ويرى بيلينسكي أن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو النشاط الاجتماعي والنفسي وكذلك الانفعالات والعواطف. ويرى أن الحياة العقلية لا تكتمل إلا بالعواطف والانفعالات ومن الصعب تصور الوعي بمعزل عن المشاعر (عامود، 2001). وقد تحدث أيضا عن أنواع المشاعر ومستوياتها المختلفة وما يحمله كل نوع من قيمة للإنسان. ويعتقد أن المشاعر العميقة هي وحدها التي تشحن العقل بالطاقة الضرورية للنمو والتطور.

تشيرنيشفسكي والحاجات الإنسانية (1828-1889)

درس تشيرنيشفسكي الأدب والتاريخ في جامعات سانت بطرس بورغ، وقد عمل بعد تخرجه بالصحافة والتعليم. لقد بحث تشيرنيشفسكي موضوع الظواهر الإنسانية واستطاع أن يقسمها إلى قسمين :

الأول: "الظواهر الفيزيائية" كالأكل والشرب والمشي .

الثاني: "الظواهر المعنوية" ، كالإحساس والرغبة والفكر .

ويشير تشيرنيشفسكي إلى اثر التاريخ والبيئة الخارجية على الفكر وحياة الإنسان. كما وربط بين الوعي والجهاز العصبي، وهو يقول إن الدماغ هو أداة الفكر والوعي والمعرفة، ولا يمكن لمخلوق آخر غير الإنسان بلوغ ما بلغه من معرفة ووعي. كما واهتم تشيرنيشفسكي بالعلاقة بين البيئة والوراثة وفي تأثيرها على الوعي الإنساني. وهو يؤمن كثيرًا بتأثير البيئة على الإنسان وعلى فكره وعقله (عامود، 2001). لا يؤمن تشيرنيشفسكي بالتفاوت الفطري في القدرات العقلية بين البشر. لذا فلا يمكن الحكم على جماعة بأنها أقل ذكاء من جماعة أخرى، أو على شعب بأنه أعلى أو أدنى من شعب آخر بمجرد انتمائه لعرق ما (عامود، 2001).

وقد درس تشيرنيشفسكي موضوع الحاجات البشرية ومدى تأثيرها على العقل والفكر، فذهب إلى تقسيم الحاجات إلى نوعين :الحاجات الأولية والضرورية ، كالحاجة للتنفس والطعام والشراب. والحاجات العليا ، كالحاجة إلى الحقيقة . والحاجات العليا تقوم على إشباع القدرات فمن خلال الرغبة في تحقيق الحاجات العليا فان القدرات ترقى وتنمو.

(رسم 1) سلم تشيرنيشفسكي للحاجات الإنسانية

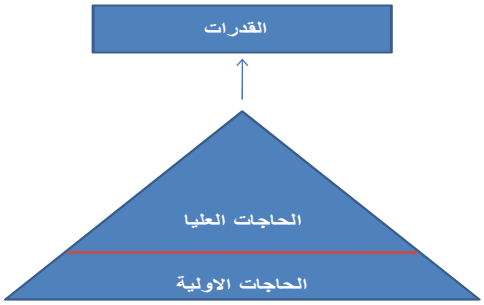

ويرى تشيرنيشفسكي أن النشاط العقلي يضعف ويتلاشى إذا كانت الظروف سيئة ولا تساعد على التحصيل المعرفي. لذلك فان غياب الرغبة الذي نلاحظه عند بعض الأطفال لا يرجع إلى ضعف الحاجة إلى المعرفة والاطلاع عندهم بقدر ما يرجع إلى الأخطاء التربوية التي يرتكبها الكبار (عامود، 2001). إن أفكار وآراء تشيرنيشفسكي هي أساسًا للتربية السليمة التي قد تساهم في بناء مؤسسات تربوية سليمة.

دوبرلوبوف وعملية التعليم (1836-1861)

هو نيقولاي الكسندر دوبرلوبوف ولد في مدينة نوفغورد. عمل في المجال التربوي والصحافة. كان صديق حميم لتشيرنيشفسكي. يؤمن دوبرلوبوف في المقام الأول بأنه يجب تطوير شخصية الطفل من جميع النواحي وإعداده للحياة. ويرى أن التعليم ليس معناه فقط مجرد نقل المعلومات إلى أذهان التلاميذ وإنما هو عمل يسعى إلى الارتقاء بذكاء الإنسان وقدراته العقلية. وهو يقول بهذا الصدد: "يجب تعليم الأطفال التفكير بصورة مستقلة، وإرشادهم إلى محبة المعارف والتعبير عن المواد بمفاهيم واضحة وكاملة" (Добролюбов Н.А., 1961).

ويرى دوبرلوبوف أن نشاط أعضاء الحس يحسن من النشاط العقلي فالتجربة الحسية الغنية تساعد على نمو القدرة العقلية، وضعفها يؤدي إلى انخفاض النشاط العقلي (Добролюбов Н.А., 1961).

لقد وجدت أفكار دوبرلوبوف صدى في مجال التربية والتعليم في روسيا.

سيتشينوف والدراسات الفيزيولوجية واثرها في علم النفس الروسي (1829-1905)

لقد اهتم العديد من العلماء الروس بمجال العلوم الطبيعية وخاصة الفيزيولوجيا، ومن هؤلاء : موخين (1766-1850)، ديادكوفسكي(1784-1841)، فيلومافيتسكي (1807-1849)، سيتشينوف (1829-1905) وغيرهم . كان لهذه الدراسات الاثر الكبير على نمو علم النفس والعلوم الإنسانية، فنجد أن موخين يرى الحياة النفسية عبارة عن نشاط يقوم به الجهاز العصبي، والنشاط النفسي يتفاوت من كائن لآخر وذلك بتفاوت بنية الجهاز العصبي وخاصة الدماغ. وكلما كان مبنى الدماغ أرقى كلما كان المستوى النفسي أعلى، ويشير موخين إلى دور البيئة أيضا في ذلك (عامود، 2001). يتفق كل من ديادكوفسكي وفيلومافيتسكي، اللذان يريان أن الدماغ هو جهاز مركب ومنظم وفعال وان الفرد يحقق بفضله توازنه مع

البيئة الخارجية، مع موخين حول طبيعة النفس وعلاقتها بالجهاز العصبي المركزي، وفي دور البيئة الخارجية وأثرها فيها.

سيتشينوف (1829-1905)، وهو الذي درس العلوم الطبية وعلم النفس في موسكو وبعد تخرجه اتجه إلى ألمانيا ليدرس الفيزيولوجيا، وقد كتب أثناء دراسته عدة مقالات حول فيزيولوجيا الجهاز العصبي. لقد اعتمد سيتشينوف كثيرًا على المنهج التجريبي للتحقق من صحة فرضياته والإجابة على التساؤلات المطروحة وقد لقب سيتشينوف بابي الفيزيولوجيا الروسية . لقد أجرى سيتشينوف الكثير من الأبحاث على الدماغ بهدف معرفة آليات عمله في مختلف الحالات والمواقف وخاصة الاستجابة الإرادية واللاإرادية، ويشير سيتشينوف إلى أن كافة الحركات والأفعال التي يتألف منها السلوك تنشأ بفضل النشاط الدماغي. وهذا ما أطلق عليه اسم الانعكاس (عامود، 2001).

(رسم 2) انعكاس سيتشينوف

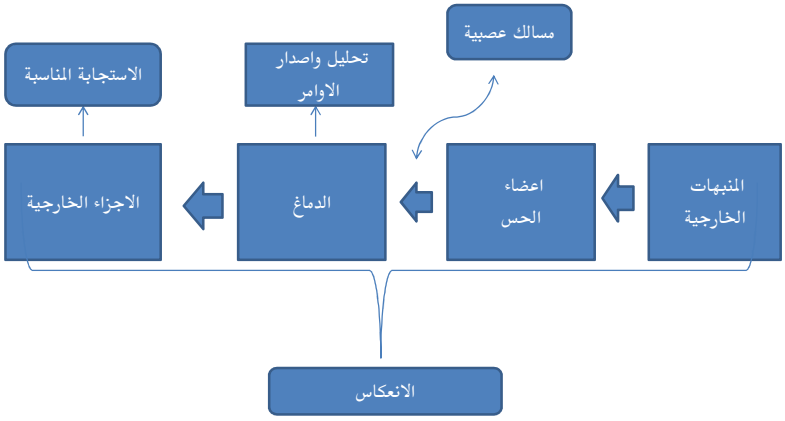

لقد درس سيتشينوف النشاط النفسي بمستوياته المختلفة عبر ارتباطه بالبيئة الخارجية وعلاقته بالعمليات العصبية التي تحدث في الدماغ وصلته بالحركات الاستجابية التي تصدر عن الكائن الحي كرد فعل (عامود، 2001).

ويقول سيتشينوف: " ان جميع الوقائع النفسية دون استثناء تتطور عن طريق الانعكاس" (Се́ченов И. М. ,1953).

ويقول أيضا أن الحواس هي جذر التفكير والشكل الأولي للنشاط النفسي. إن الحركة (الفعل) والإحساس (الإشارة أو الشكل) يؤلفان حلقة من الفعل الانعكاسي وكل منهما يكمل الآخر . ويشير إلى أن عناصر الفكر تكمن في النشاط الحركي ، ووجد أن غنى المحيط الخارجي يساعد حتمًا على الارتقاء بمستوى وعي الإنسان الذي يحيا فيه(Се́ченов И. М. ,1953).

يعتقد سيتشينوف أن التفكير والتذكر والكلام وسائر العمليات العقلية التي نجدها عند الراشد إنما هي انعكاسات معقدة تكونت تدريجيًا نتيجة العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة الخارجية (Се́ченов И. М. ,1953). ويرى أن الإحساس هو أصل النشاط العقلي عند الأطفال، لذا فلا يمكن وضع فاصل بين العقل وأعضاء الحس (عامود، 2001).

يعتقد سيتشينوف أن للتجربة والممارسة أهمية خاصة في الحياة النفسية. وقد أكد أن التجربة هي مصدر نشوء الفكر وتطوره، ويرى أن الحس هو ظاهرة نفسية تنشأ عن الحركة المستمرة للكائن الحي في الوسط الذي يعيش فيه. ووجد أيضا أن الإحساس هو شكل أو انعكاس للواقع (Се́ченов И. М. ,1953).

لقد تناول سيتشينوف النشاط العقلي في العديد من أبحاثه وقد وجد انه يشمل ثلاث مراحل :

1. الاحتكاك المباشر بالموضوعات الخارجية والتعامل معها بصورة منفصلة.
2. مقارنة تلك الموضوعات بعضها مع بعض.
3. الوقوف على التشابه والاختلاف.

من هذا المنطلق يرى سيتشينوف أن الإحساس هو أصل النشاط العقلي عند الطفل وقاعدته. ويرى أيضا أن التفكير عند الأطفال يمر بعدة مراحل وأطوار، وهي :

- النشاط الذهني (فقط ذهني ولا يتعدى حدود التوجه في الزمان والمكان)
- النشاط المادي والحسي (الاعتماد على الإحساسات البصرية واللمسية والسمعية) يجد الأطفال صعوبة الربط المنطقي بين الموضوعات .
- تجربة الكبار التي يتمثلها الطفل.
- التفكير المجرد (الغير حسي)، أرقى مرحلة في التفكير .

ويشدد كثيرًا سيتشينوف على أن النشاط الحركي له أهمية بالغة في نشوء التفكير. ويأتي لنا بدليل على قوله فيورد مثالاً على تشكل مفهوم العدد عند الأطفال من خلال عملية العد بالخطوات ويجد أن

الحركات التي تتخذ شكل المشي والإحساسات العضلية التي تنشأ اثناءها تلعب دورًا كبيرًا في تكوّن هذه النشاطات الذهنية (Се́ченов И. М. ,1953).

كان لسيتشينوف الأثر الكبير في تقدم علم النفس وخاصة علم النفس الفيزيولوجي. ولا شك أن أفكاره وتجاربه خدمت الكثير ممن يعملون في ميدان علم النفس والعلوم الإنسانية. ونجد من تلامذته الذين ساروا على دربه وعمقوا أفكاره من أمثال، فيدينسكي، تارخانوف وبافلوف.

إيفان بيتروفيتش بافلوف ونظرية الاشراط الكلاسيكي في علم النفس

ايفان بيتروفيتش بافلوف (1849–1936). ولد لعائلة فقيرة ومتواضعة. تعلم في جامعة سانت بطرس بورغ في قسم العلوم الطبيعية. وقد تعرف بافلوف على نخبة من العلماء خلال دراسته وفي مقدمتهم عالم الكيمياء مندليف وبوتليروف وعالم النبات بيكتوف وبوردوين وعالما الفيزيولوجيا اوفسيانيكوف وتسيون. وقد تعلق بافلوف بالفيزيولوجيا وعمل في هذا المجال مع العديد من العلماء أمثال: تسيون، ستيموفيتش، بوتكين. وفي عام 1884 سافر إلى ألمانيا لدراسة الفيزيولوجيا لعامين استطاع خلالهما أن يطور قدراته في هذا المجال وقد تعرف على علماء ألمان في هذا المجال أمثال : غيرنغاين ولودفيغ.

لقد بحث بافلوف الكثير من المظاهر الفيزيولوجية التي ساهمت في تقدم الكثير من العلوم وخاصة العلوم الطبية، أما أبحاثه ودراساته في مجال فيزيولوجيا الدماغ فقد ساهمت في تقدم ميدان علم النفس، لقد قام بافلوف بدراسة وظائف الدماغ عن طريق ما سماه "طريقة الانعكاسات الشرطية" وقد انطلق بافلوف في أبحاثه من نظرية سيتشينوف الانعكاسية وما توليه للعضلات من أهمية بالغة في نشوء مختلف المظاهر الخارجية للنشاط الدماغي (عامود، 2001). وقد اقترح بافلوف مفهوم الانعكاس الشرطي تعبيرًا عن آلية النشاط العصبي المعقد ويقابل هذا المفهوم مفهوم آخر هو الانعكاس غير الشرطي الذي يدل على الاستجابة الغريزية.

إن الانعكاسات الشرطية تؤلف مجموع الخبرات التي يكتسبها الفرد خلال حياته. ولم يفصل بافلوف بين النوعين بل أكد على ارتباط الشرطية منها بغير الشرطية. هذا الارتباط يظهر لديه في كون الانعكاس الغير شرطي يعتبر كقاعدة فيزيولوجية تقوم عليها الانعكاسات الشرطية. ومن تجارب بافلوف التي توضح الانعكاس الغير شرطي والانعكاس الشرطي هي تجربته الكلاسيكية على الكلب وخلاصة هذه التجربة هي أن تقديم الطعام للكلب كمنبه طبيعي يستدعي سيلان لعابه.

الانعكاس الغير شرطي:

طعام ⟸ سيلان لعاب

اقتران هذه العملية (تقديم الطعام) بعد ذلك بضوء مصباح كهربائي أو صوت جرس أو لمس الجلد كمنبه ثانوي والذي لا يثير لدى الحيوان في الأحوال العادية إلا الانعكاسات التوجيهية الفطرية الغريزية (الانتباه = ما هذا ؟) (عامود، 2001).

الانعكاس الشرطي:

ضوء أو صوت أو لمس جلد ⟸ انتباه ؟

مع تكرار هذا الاقتران عدد من المرات والمحافظة على تقديم المنبه الطبيعي بعد المنبه الثانوي (الضوء،الجرس..)، لاحظ بافلوف أن هذا المنبه اخذ يثير لدى الكلب انعكاسًا شرطيًا مثلما كان يفعل الطعام وحتى لو لم يقدم إليه طعام.

يقول بافلوف: " إن التوافق الزمني للمنبهات الجانبية مع الانعكاس الغير شرطي مره أو عدة مرات هو الشرط الأساسي لتشكل الانعكاس الشرطي" (بافلوف، 1951).

إن تجارب وآراء بافلوف كان لها الأثر الكبير على علم النفس الروسي والعالمي ، وكانت أفكاره الهام لعلماء نفس روس وعالميين لبناء اتجاهات في علم النفس.

بيختيريف مؤسس علم النفس الانعكاسي في روسيا (1857-1927)

هو فلاديمير ميخائيلوفيتش بيختيريف، والذي يعتبر مؤسس المدرسة الانعكاسية في علم النفس. لقد انشأ بيختيريف مختبر للدراسات السيكوفيزيولوجية في روسيا. لقد كتب بيختيريف العديد من المؤلفات في فيزيولوجيا الجهاز العصبي المركزي. ويرى أن المنبهات الداخلية تدفع الحيوان والإنسان إلى القيام بالحركات والأفعال شأنها شأن التنبيهات الخارجية. لقد أسس بيختيريف علم النفس الانعكاسي، وهو علم جديد يدرس شخصية الإنسان من الناحيتين، البيولوجية والاجتماعية (عامود، 2001).

يقول بيخيريف: " ... علينا أن نسير في طريق دراسة العلوم الطبيعية للمادة في محيطها الاجتماعي، وان نتبين صلة الأفعال والتصرفات، وجميع المظاهر الأخرى للشخصية الإنسانية، بالأسباب الخارجية التي تستدعيها في الحاضر والماضي على حد سواء، وذلك بقصد اكتشاف القوانين التي تخضع لها هذه المظاهر

وتحديد تلك الارتباطات القئمة بين الإنسان والعالم الفيزيائي والبيولوجي وخاصة الاجتماعي المحيط به" (Бехтерев В.М., 1926).

لقد أسس بيختيرف نظريته على آراء سيتشينوف في الفيزيولوجيا، وقد صبغ اتجاه علم النفس الروسي بصبغة الانعكاسية في تلك الفترة.

فلاديمير الكسندروفيتش فاغنر ونظرية "تأرجح الغرائز" في علم النفس (1849–1934)

يعتبر فاغنر من رواد علم النفس الروس الذين درسوا علم النفس وارتباطه بالعمليات البيولوجية والفيزيولوجية للجهاز العصبي المركزي. لقد درس فاغنر في جامعة سانت بطرس بورغ في كلية العلوم. كتب العديد من المؤلفات التي أوضح فيها أفكاره، أهمها :" الأسس البيولوجية لعلم النفس المقارن"، "نشأة القدرات النفسية وتطورها"، "البيوسيكولوجيا والعلوم المجاورة".

يرى فاغنر أن دراسة سلوك الكائنات الحية تقتضي الأخذ بمبدأ الارتقاء والنشوء. هذا المبدأ يساعد الدارس والباحث على تتبع التغيرات الكمية والنوعية التي تطرأ على سلوك الكائن الحي لدى الانتقال من درجة إلى درجة أخرى في سلم تطور الأحياء (عامود، 2001).

يقول فاغنر: "... إن البرهان على أنّ الغرائز هي انعكاسات فحسب ليس أكثر إقناعًا من البرهان على أن جناح الفراشة والطير والطائرة هي ظواهر من نوع واحد. صحيح إنها متجانسة من حيث التكيف مع الطيران، ولكنها مختلفة تمامًا في الجوهر. كذلك حال الانعكاسات مع الغرائز. فهذه الظواهر متجانسة من وجهة نظر القابلية للتكيف. وهذه وتلك موروثة... وعمياء. بيد أن التأكيد، من منطلق العلامات الجزئية للتشابه، على أن هذه الظواهر متجانسة، وافتراض أنه لدى دراسة آلية الانعكاسات يمكننا التعرف على الغرائز، أي أن نقف على قوانين تطورها وعلاقاتها بالقدرات العقلية وقوانين تغيرها وتشكلها، أمر يجانب الحقيقة بشكل صارخ، قد لا يكون معه الإصرار على النقيض مسوَّغًا" (Петровский А. В., 1967).

ويشير فاغنر إلى أن الغرائز والانعكاسات متجانسة في جانب ، وغير متجانسة في جانب آخر. وقد قام بالعديد من الأبحاث والدراسات التي استطاع من خلالها أن يؤكد على المنشأ الانعكاسي للغرائز وصاغ نظريته حول "تأرجح الغرائز" والذي قدم من خلالها فهمًا جديدًا لطبيعة الغرائز وتكوينها (عامود، 2001).

لقد منح فاغنر الغرائز سمة المرونة والتأرجح مشيرًا إلى ضرورة الاهتمام بالفرد، ومدى اختلاف مستوى تكيفه مع الشروط الخارجية عن مستوى تكيف سواه ممن ينتمي إلى نفس النوع الحيواني.
رغم أن آراء فاغنر لم تعزز بأمثلة من الواقع، وبقيت نظريته "تأرجح الغرائز" دون سند علمي أو دليل محسوس إلا أن ما جاء به من أفكار وآراء يعتبر خطوة هامة على طريق تفسير السلوك.

علم النفس الروسي حتى الثورة الاشتراكية

يمكننا أن نرى ثلاث اتجاهات أساسية في علم النفس الروسي منذ نشأته حتى الثورة الاشتراكية، وذلك اعتمادًا على أفكار العلماء في هذا المجال، هذه الاتجاهات هي (عامود، 2001):

- الاتجاه المثالي (التأملي)، ويمثله زينكوفسكي، فيدينسكي، لابشين، لوباتين و لوسكي .
- الاتجاه الطبيعي ويمثله لانج، لازورسكي، بيختيريف، فاغنر. ودراسة السلوك تتم عن طريق الملاحظة الموضوعية والتجربة العلمية وهم ينتقدون الاستبطانية، ويركزون على الانعكاسية.
- الاتجاه الامبيريقي (الخبري)، ويمثله جيلبانوف، سيكورسكي. هذا الاتجاه يحتل موقع الوسط بين الاتجاهين السابقين وقد درس هذا الاتجاه العلوم الطبيعية واستخدمها في الدراسات السيكولوجية.

لقد كان علم النفس الانعكاسي من أقوى الاتجاهات والمدارس النفسية في روسيا حتى وفاة زعيمه بيختيريف عام 1927. وقد كانت في حينها العديد من الاتجاهات النفسية التي عارضت فكرة علم النفس الانعكاسي، وخاصة كون علم النفس الانعكاسي ينفي الانعكاسية للوعي، ويعد فيجوتسكي من ابرز المتحمسين لموضوع الوعي في علم النفس. وهو احد الذين عارضوا المادية الآلية التي طبعت علم النفس الانعكاسي. لقد كتب فيجوتسكي مقال بعنوان: "الوعي بوصفه مشكلة علم النفس"، والذي اعتبر لدى الكثير من علماء النفس الروس على أنه أول عمل سيكولوجي يقدم فهمًا سليمًا للوعي.
بعد وفاة بيختيريف تواصلت الانتقادات لعلم النفس الانعكاسي مما أدى إلى إضعافه بدرجة كبيرة. وفي عام 1923 ظهرت سلسلة من المقالات التي طالبت بإصلاح علم النفس ، ونجد أن بعض علماء النفس الروس اعتنقوا تعاليم فرويد وعلم النفس التحليلي كمحاولة للخروج من الأزمة. لقد وجه لهؤلاء انتقادات كبيرة، وهذا بيتروفسكي يلخص الانتقادات التي وجهت إلى الفرويدية في تلك الآونة، فيجد أنها

تمحورت حول (عامود، 2001):

- أن فرويد أغفل الصراع الحقيقي بين القوى الاجتماعية وتأثيراته في تطور الشخصية، واستبدل به الصراع بين الرغبات اللاواعية والوعي.
- أَنّ فرويد حين يقول بأسبقية اللاوعي، إنما يضع نفسه في خدمة المذهب الميتافيزيائي الذي ينظر إلى الوعي واللاوعي خارج الزمان والمكان وأنه لا علاقة لهما البتة بالتاريخ الاجتماعي.
- أَنّ الجانب اللاواعي قد يلعب دورًا في حياة الشخصية. ولكن هذا الدور يظلّ محدودًا جدًا في الحالات العادية، ولا يظهر إلا في الحالات المرضية.
- إن الفرويدية تتعامى عن المحتوى الثري للنفس ولا ترى إلا الرغبة الجنسية والسعي للحصول على اللذة من بين الحاجات والدوافع الغريزية والاجتماعية.
- إن منهج التحليل النفسي هو منهج ذاتي يمكن لمن يستخدمه أن يصل إلى نتائج تتعارض مع ما يتوصل إليه محلل آخر. وفي الحالتين يكون نصيب تلك النتائج من الموضوعية قليلاً، وقدرتها على الإقناع ضعيفة.

كما وانتشرت في روسيا أفكار (آدلر) مؤسس "علم النفس الفردي" وأفكار لونغ صاحب "علم النفس الجمعي". وكذلك اقبل علماء النفس الروس على الغشتالتية. وقد عانى علم النفس الروسي من صراعات وخلافات كبيرة، وقد دعى علماء النفس هناك إلى البحث عن مخرج من هذه الأزمة. ففي نظرهم الاتجاه الانعكاسي والموضوعي والسلوكي حتى الغاشتلتي بدى عاجز عن حل الكثير من المشكلات الميدانية والنظرية. نتيجة هذه الصراعات سعى العلماء إلى إيجاد اتجاه جديد في علم النفس، وبما ان الماركسية كانت تعرف الإنسان بأنه كائن اجتماعي فقد اخذ الاتجاه الجديد البعد الاجتماعي للإنسان بعين الاعتبار. وهنا يقول جيلبانوف (1962): "إن رمز إصلاح علم النفس في ظل الأيديولوجيا الجديدة يجب أن لا يكون إعداد مزلاج لدراسة الانعكاسات الشرطية، كما هو جارٍ في المؤسسات السيكولوجية المعاصرة، وإنما تنظيم العمل لدراسة علم النفس الاجتماعي" (عامود، 2001).

لقد اغفل علم النفس الانعكاسي الشروط الاجتماعية وأثرها في تكوين السلوك الإنساني. وقد حاول كارنيلوف إصلاح علم النفس وبناءه على أساس الماركسية واستطاع أن يستقطب نخبة من الباحثين الشباب ممن كانوا يعملون في معهد علم النفس بموسكو أو في كليات العلوم الاجتماعية بجامعة موسكو

أمثال ، ارتيموف، دوبرينين، فيجوتسكي ، لوريا، ليونتيف، جوجماروف وغيرهم. وقد تمكن عدد من الباحثين من لفت الانظار في تلك الفتره إلى أفكارهم وتحليلاتهم العميقة في المجالات المختلفة لعلم النفس كمثل بلونسكي وباسوف وفيجوتسكي.

لقد نشر بلونسكي (1935) عدة مؤلفات ، أهمها "التذكر والتفكير" ، "تطور التفكير عند التلاميذ"، وكان لهذين الكتابين صدى كبير في ميدان علم النفس الروسي. أما باسوف (1892–1932) فقد كتب عددًا من المؤلفات أهمها، "الأسس العامة لعلم النفس" ، "طريقة الملاحظات السيكولوجية للأطفال". إن ما يلفت الانتباه لدى باسوف هو نظرته إلى الإنسان كعضو فعال في الوسط الذي يحيى فيه ، وتلك خاصية عنده يتميز بها عن باقي الكائنات الحية. يقول باسوف: " إن الإنسان ، خلافًا للحيوان ، لا يتكيف بنفسه مع البيئة فقط، وإنما يكيف البيئة معه من خلال تأثيره عليها وتحويله لها في مجرى عمله بمساعدة أدوات العمل المصنعة" (Петровский A. B., 1967). لقد صاغ باسوف نظريته في تطور النفس على أساس العلاقة المعقدة والوثيقة بين الجانبين: البيولوجي والبيئي، الموروث والمكتسب، واعتبر أن الوراثة والبيئة هما العاملان اللذان يحددان تطور الكائنات الحية العليا عامة، والإنسان خاصة. ووجد أن من غير الممكن فهم عملية التطور فهمًا سليمًا ما لم يؤخذ هذان العاملان معًا بعين الاعتبار، ويتحدد دور كل منهما فيها.

علم النفس في الاتحاد السوفيتي

ليف سيميونيفيتش فيجوتسكي ونظريتة في علم النفس

ليف سيميونيفيتش فيجوتسكي (1896–1936)، وهو الذي يعتبر مؤسس أكبر المدارس في علم النفس الروسي في فترة السوفييت. ولد في اورشا ونشأ في بيلاروسيا، عمل في مطلع حياته معلمًا في مدارسها. مال فيجوتسكي إلى دراسة الأدب وقد قرأ ودرس بوشكين وشكسبير وكتب تحليلا سيكولوجيًا لأعمالهم الفنية في عمل أطلق عليه اسم "سيكولوجية الفن". درس فيجوتسكي في جامعة موسكو وقد عمل مع كارنيلوف في معهد علم النفس بموسكو. التقى فيجوتسكي في هذا المعهد مع لوريا وليونتيف فكوّن مجموعة كان له فيها الدور القيادي. وقد ساهمت هذه المجموعة في تحديد معالم ومصير علم النفس الروسي (عامود، 2001).

لقد اهتم فيجوتسكي بدراسة الفنون كما ذكرنا من الناحية السيكولوجية ويرى أن الانفعال هو شكل

اجتماعي موضوعي يكتسي في الإنتاج الفني صبغة مادية عبر الوسائط الإشارية الخاصة. فهو يعتبر الإنتاج الفني أداة اجتماعية يتم عن طريقها إعادة صياغة الانفعالات وتحويلها إلى حالات نفسية مصحوبة بتغيرات فيزيولوجية عميقة (.Выготский Л. С., 1983). كذلك بحث فيجوتسكي النمو الجسمي والنفسي عند الأطفال الأسوياء والمرضى، واهتم بفئة الأطفال المعوقين حركيًا والمتخلفين عقليًا. وعمل في مجال علم النفس التربوي فألف كتابًا بعنوان "علم النفس التربوي".وقام بعدد من الأبحاث استطاع أن يستنتج منها الآتي: (عامود، 2001):

- إن تجاهل الوعي يصرف علم النفس عن دراسة المشكلات السلوكية الهامة ويحصر اهتمامه في العلاقات البسيطة للكائن الحي مع عالمه المحيط.
- إن نفي الوعي والسعي لإقامة سيكولوجية خالية من هذا المفهوم مثلما هو حال "علم النفس بدون الوعي" — حسب تعبير فيجوتسكي نفسه — يعني حرمان الطريقة من أهم وسائل البحث في دراسة الاستجابات التي لا تظهر للعين المجردة، كالحركات الداخلية والكلام الداخلي الاستجابات المبرمجة والمخططة. فدراسة الاستجابات الظاهرية والخارجية التي تبدو بوضوح أمر غير ذي شأن حتى أمام أبسط مشكلات السلوك الإنساني.
- إن عدم الاعتراف بالخطوط الفاصلة بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوانات يفتح الباب أمام طغيان علم الأحياء على علم الاجتماع، والفيزيولوجيا على علم النفس. ويصبح سلوك الإنسان يدرس بنفس الكيفية والقوانين التي يدرس بها سلوك جميع الحيوانات.
- إن استبعاد الوعي من دائرة الاهتمام السيكولوجي يجعل البحث يدور في الحلقة البيولوجية ويقود إلى نتائج خاطئة عن السلوك الإنساني.

لقد لاحظ فيجوتسكي على علم النفس التقليدي غياب البعد التاريخي والاجتماعي في تناوله للوظائف النفسية العليا، ويرى أن الوظائف النفسية العليا عند الأطفال كالكلام والرسم والقراءة والكتابة والاستدلال والتصور ونشوء مفهوم العدد والعمليات الحسابية، لم تدرس إلا من جانبها الطبيعي ومن زاوية العمليات التي تتألف منها (عامود، 2001). ويعتقد فيجوتسكي أن سلوك الإنسان هو نتاج عمليتين مختلفتين من التطور النفسي:

أولا : الارتقاء البيولوجي للإنسان.

ثانيا: التطور التاريخي الثقافي للإنسان.

إن هاتين العمليتين تمثلان خطين مستقلين في التطور الإنساني والخلط بينهما هو السبب الأساسي في أزمة علم النفس الطفل. ويحدد فيجوتسكي البحث السيكولوجي في دراسة التطور الثقافي الذي يحدث ضمن سياق التطور العضوي. يركز فيجوتسكي على الدور الحاسم الذي يقوم به التاريخ الاجتماعي في التطور النفسي، ويجده ممثلاً في ما ينتجه المجتمع ويطوره مما اسماه "أدوات–إشارات" كاللغة والكتابة والقراءة والحساب (عامود، 2001). ويقول فيجوتسكي: ليست الطبيعة، وإنما المجتمع هو الذي يجب إن ينظر إليه في المقام الأول كعامل محدد لسلوك الإنسان (.Выготский Л. С., 1983).

رسم (رقم 3)– نظرية فيجوتسكي في التطور النفسي

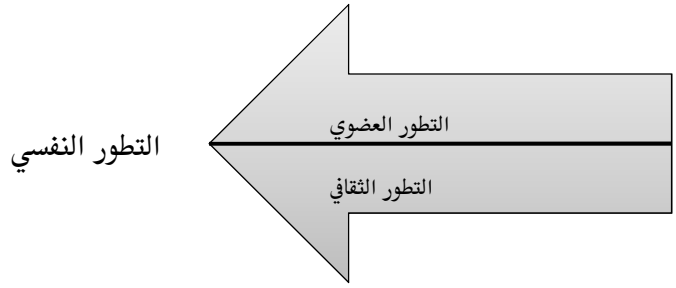

وفي عام 1929 نشر فيجوتسكي مقالاً بعنوان "تطور الأشكال العليا للانتباه في سن الطفولة". وفي عام 1930 أعقبه بمقال آخر حول "الأداة والإشارة". وخلال عامي 1930 و1931 كتب مؤلفه "تاريخ تطور الوظائف النفسية العليا" الذي لم ينشر إلا بعد وفاته بأكثر من عقدين. وفي عام 1931 ظهر كتابه "التفكير واللغة" .

من خلال هذه الأعمال يظهر منهج فيجوتسكي في دراسة النشاطات النفسية العليا، والذي اسماه المنهج التكويني– التجريبي. يجد فيجوتسكي ان العمليات النفسية العليا تكون في البداية اجتماعية خارجية، ثم تصير فيما بعد نفسية، داخلية ويقصد بذلك أن الوظيفة النفسية تظهر على شكل علاقات بين الناس، ثم تنتقل تدريجيًا إلى الداخل وتصبح ذاتية وخاصة. وفقًا لنظرية فيجوتسكي فان العمليات النفسية عند الإنسان هي منذ البداية اجتماعية المنشأ والشكل، ثم تكتسب في مجرى التطور شكل العمليات الفردية الداخلية (عامود، 2001).

رسم (رقم 4)– تطور الوظائف النفسية العليا عند فيجوتسكي

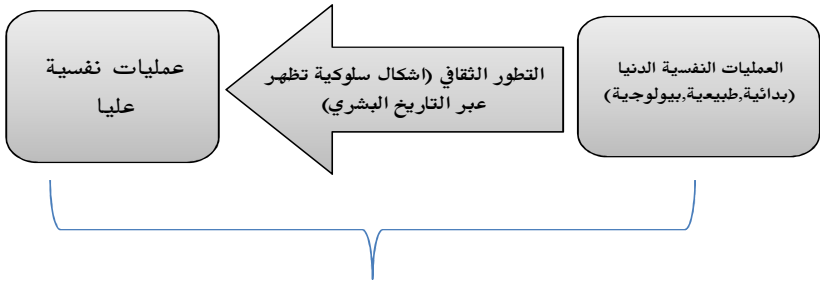

تطور الوظائف النفسية العليا

كما وبحث فيجوتسكي عملية الكلام لدى الأطفال، ففي حين يذهب بياجيه وأتباعه إلى أن كلام الطفل (والوظائف النفسية الأخرى) يكون في طوره الأول فرديًا، ثم يصبح متمركزًا حول الذات، وشيئًا فشيئًا يتحول في الطور الأخير إلى كلام اجتماعي، ويجد السلوكيون أن الكلام يمر بمرحلتين قبل أن يصبح داخليًا (أي تفكيرًا)، وهما مرحلة التصويت ومرحلة الهمس، يقرر فيجوتسكي أن الكلام يتطور بالاتجاه المعاكس للاتجاهين السابقين. ففي المرحلة الأولى يتخذ طابعًا اجتماعيًا، ثم يصبح متمركزًا حول الذات، وفي السنة السابعة من عمر الطفل يصير داخليًا (عامود، 2001).

مراحل نمو الكلام عند فيجوتسكي

كلام ذو طابع اجتماعي ⟸ كلام متمركز حول الذات ⟸ كلام داخلي

ولقد أشار فيجوتسكي إلى هذا الخلاف بقوله: "ويختلف التصور الكلي لنمو الكلام وفقًا للتفسير الذي يعطي لدور الكلام المتمركز حول الذات. وتصورنا التخطيطي لهذا النمو على النحو التالي: الكلام الاجتماعي أولاً، ثم الكلام المتمركز حول الذات، ثم الكلام الداخلي. ويناقض هذا الموقف الذي نتبناه، من ناحية، التصور السلوكي التقليدي (الكلام الصوتي، الهمس، الكلام الداخلي). ومن ناحية أخرى، التتابع التطوري في تصور بياجيه (من التفكير اللاواقعي اللالفظي خلال التفكير، والكلام المتمركز حول الذات إلى الكلام المطبوع اجتماعيًا والتفكير المنطقي" (Выготский Л. С., 1982.).

كما ويرى فيجوتسكي أن عمليتي التربية والتعليم تهدف إلى إكساب الأطفال التجربة الاجتماعية والتي تتضمن الأدوات–الإشارات (اللغة،الرموز، الجداول...) والمعلومات والمهارات. ويعتقد فيجوتسكي أن عملية استيعاب الطفل للتعلم لا تتم بصورة آلية أو تلقائية اثناء مواجهة الطفل لعناصر التجربة والخبرة مثلما يرى بياجيه وأتباعه، وإنما عبر توسط الكبار وتدخلاتهم وتوجيهاتهم. ويرى أن التطور النفسي هو نتاج العلاقة التي يقيمها الراشدين مع الطفل منذ اللحظات الأولى لولادته. إذ أن الراشد يمثل المجتمع والخبرة الاجتماعية، وهو المؤهل لنقلها إلى الطفل (عامود، 2001).

وفقًا لفيجوتسكي فان التعليم هو عبارة عن نشاط اجتماعي تربوي يتولاه الكبار من اجل نقل تجاربهم إلى الصغار. هذا يعني أن التعليم هو الشرط الأساسي للتطور النفسي. فهو يكّون ما أطلق عليه "منطقة التطور القريب". وقصد بهذا المصطلح التحسن في قدرة الطفل على حل المشكلات التي تعترضه نتيجة المساعدات التي يقدمها الكبار له، ويعتقد أن الطفل عندما يواجه مشكلة في حل المسائلة ويقوم الراشد بمساعدته فانه في المستقبل سيقوم بحلها أو ما يشابهها بمفرده.

رسم (رقم 5) – التطور النفسي للطفل عند فيجوتسكي

ويرى فيجوتسكي ان نجاح هذه العملية يعود إلى معرفة ودراية الراشد بقدرات الصغار.

ومن هذه القاعدة أيضا امتدت معارضة فيجوتسكي لتشمل مسألة أخرى ذات أهمية نظرية وتطبيقية، وهي مسألة الاختبارات التي شاع استخدامها في علم النفس. فمن المعروف أن الاختبار هو مجموعة من الأسئلة أو المشكلات التي يرى واضعوه أنها تقيس مستوى القدرات العقلية عند فئة من الناس. ويرى فيجوتسكي أن الإجابات على الكثير من الأسئلة تعتمد على ما اكتسبه المفحوص من معلومات أو خبرات. وإن العجز عن تقديم إجابات صحيحة لا يعتبر بحد ذاته دليلاً كافيًا على ضعف هذه القدرة أو تلك عند المفحوصين الذين يظهرونه بقدر ما هو نتيجة لعدم اكتسابهم بَعْدُ المعلومة أو الخبرة التي يتطلبها السؤال. ويخلص إلى القول بخطأ الحكم على هؤلاء المفحوصين وأترابهم، وبتعسف القرار الذي يتخذ بحقهم بناءً على درجاتهم في الاختبار فقط (عامود، 2001).

وكبديل لهذه الطريقة اقترح فيجوتسكي إجراء دراسات متعددة ومتنوعة، واستخدام تجارب مختلفة فيها، مع تطبيق التجربة الواحدة مرتين يتم في الأولى الكشف عن حجم المساعدة التي يحتاج إليها المفحوص (الطفل) لحل المسائل والمشكلات التي يتضمنها الاختبار. أما الثانية فتخصص لدراسة قدرات المفحوص على حل نفس المسائل والمشكلات بصورة مستقلة وبدون مساعدة من أي طرف (عامود، 2001). ويعتقد فيجوتسكي أن هذا الإجراء يمكن الباحث من تحديد منطقة التطور القريب عند المفحوص عن طريق معرفة استفادة هذا الأخير من المساعدات التي قدمت له في المرة الأولى، وتمثله للوسائل والطرائق التي استخدمت خلالها وإمكانيته على نقلها وتعميقها في المرة الثانية (عامود، 2001).

ما زالت ولا زالت أفكار فيجوتسكي تستدعي النظر والتفكر العميق. وهي من دون شك استطاعت أن توجه مسار علم النفس الروسي خاصة وعلم النفس العالمي بشكل عام. إن فيجوتسكي رغم عمره القليل إلا انه استطاع أن يغرس أفكاره في رؤوس الكثير من المفكرين الروس وغير الروس مما ساعد في تطور ونمو ميدان العلوم السلوكية . إننا نرى وبحق أن نظرية فيجوتسكي التاريخية الاجتماعية بحاجة إلى البحث العميق لأنها قريبة كل القرب للمجتمعات الجمعية، وهي قد تكون أكثر ملائمة لمجتمعنا العربي من تلك النظريات الغربية التي بنيت على الفردية. ويمكن الإفادة منها في بناء محك نفسي لشرح وتفسير السلوك في مجتمعنا وكذلك يمكننا بناء مقاييس واختبارات للقدرة العقلية على أساسها.

سيرغي ليونيدوفيتش روبينشتين وعلم النفس

يعتبر روبينشتين من رواد علم النفس الروس الذين سعوا إلى تحديد معالم علم النفس الروسي. ولد في مدينة اوديسا ودرس في ألمانيا ثم عمل مدرسًا في ثانويات اوديسا. ثم أصبح محاضرًا في قسم الفلسفة في جامعة اوديسا. وبعد ذلك عين أستاذا في قسم علم النفس في معهد التربية الوطنية. في عام 1922 كتب مقالات عديدة من أهمها "مبدأ النشاط الذاتي الإبداعي: الأسس الفلسفية للتربية المعاصرة". وفي عام 1930 انتقل إلى مدينة سانت بطرس بورغ. وقد أشرف على قسم علم النفس في معهد "غيرتسن" للتربية الذي كان يضم مجموعة من علماء النفس أمثال مياسيشيف، ميرلين، لوبلينسكايا، نيكيتينا وغيرهم. في تلك الفترة ألف كتابين هما: "أسس علم النفس" (1935)، "أسس علم النفس العام"(1940).

إن مؤلفات روبينشتين ساهمت في نمو وتطور علم النفس الروسي، واهم ما كتب "الوجود والوعي"، "التفكير وطرائق التدريس"، "أسس وطرائق تطور علم النفس"، "مشكلات علم النفس العام".

لقد بحث روبينشتين في العديد من مجالات علم النفس، كما واهتم بمفهوم النشاط لدى الإنسان وما كان يعنيه هذا المفهوم بالنسبة له هو:

– أنه نشاط الذات حصرًا، وبه يتميز الإنسان عن الحيوان والآلة ويتفوق عليهما.

– أنه تفاعل الذات والموضوع، ولذا فهو، بالضرورة، مادي وواقعي وذو محتوى، وليس رمزيًا أو صوريًا أو متوهمًا.

– أنه نشاط مبدع دومًا.

– أنه نشاط مستقل، ولكن استقلاليته لا تتعارض أبدًا مع تعاون الذات والغير، ولا تتنافى مع النشاط المشترك لأفراد المجتمع.

وبصرف النظر عن الانتقادات التي وجهت إلى روبنشتين، فإن إسهامه في إقامة علم النفس على أسس جديدة داخل الاتحاد السوفيتي واضح، ومشاركته في تطوير هذا العلم على المستوى العالمي أمر لا يرقى إليه شك (عامود، 2001).

الكسندر رومانوفيتش لوريا وإسهاماته في علم النفس الروسي

درس وتعلم لوريا (1902–1977) في جامعة كازان. ثم توجه إلى موسكو وعمل فيها، في معهد علم النفس. لقد بحث لوريا موضوع الانفعالات بمشاركة ليونتيف. كما وتعرف لوريا على فيجوتسكي وعملا معًا في معهد علم النفس. لقد ظهر نشاطهما العلمي لأول مرة في مقال لهما بعنوان " موجز تاريخ السلوك" عام 1930، هذا المقال سعى إلى تجسيد مبدأ الحتمية الاجتماعية والتاريخية في علم النفس. وكتب لوريا وفيجوتسكي كتابًا بعنوان "الأداة والإشارة" وفيه وضع الاثنان قواعد نظريه وعمليه لمشكلة النشأة الاجتماعية للوظائف النفسية العليا. وضمن هذا الإطار لاحظ لوريا و فيغوتسكي أنه في الوقت الذي ينجز فيه الإنسان نشاطه العملي بواسطة الأدوات المادية الإنتاجية، يتحقق نشاطه النفسي بمساعدة الأدوات الخاصة بالإنتاج الروحي والثقافي المتمثلة في منظومة متنوعة من الإشارات. ومن ضمنها، وأهمها الإشارات الكلامية (اللغة). وهذه المنظومة تحمل طابعًا اجتماعيًا وتاريخيًا. فالمجتمع البشري هو الذي صنعها وطورها خلال نشاط الأجيال المتعاقبة. وهي تُحضر وتُستعمل كوسيلة لتجمع الناس واتصالهم بعضهم ببعض. وشيئًا فشيئًا ومع استعمال الفرد منذ طفولته لها أثناء معاشرته للكبار وامتلاكه لها تتحول إلى وسائل يمتلك بواسطتها نشاطه الخارجي، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تشكل العمليات

النفسية الوسيطية الخاصة بالإنسان، كالانتباه الإرادي والتذكر المنطقي والتفكير المجرد... الخ (عامود، 2001).

كما وبحث لوريا عملية التذكر، ووجد أن التذكر يكون في البداية خارجيًا ومباشرًا. وان الوظائف النفسية العليا تتشكل على هذا النحو حيث تبدأ من الخارج ومع الموضوعات المادية وتتحول تدريجيًا إلى الداخل بمساعدة الرموز والإشارات. وهو يقول: "يبدأ فعل الطفل بإشارات الأم وأوامرها، وينتهي بتغير وجهة نظره أو بحركات يده. وفي هذه المنظومة يقسم الفعل بين اثنين: أمّ تبدأ الفعل، وطفل يكمله. وفي بنية الفعل هذه تتوضع مصادر الفعل الإرادي". (Лурия A.P. , 1974).

المقصود هنا ووفقًا لرأي لوريا، فان الطفل يخضع لتوجيهات الأم في البداية، ثم يستخدم كلامه الخاص كوسيلة توجه سلوكه وتنظمه. وبالإضافة إلى دراسة تشكل الوظائف النفسية العليا وتطورها عند الإنسان عبر مراحل حياته قام لوريا بدراسة للتحقق من صحة الفرضية القائلة بأن الشروط الاجتماعية هي التي تحدد مضمون تلك الوظائف وبنيتها الداخلية. وهذه الدراسة التي أُجريت خلال عامي 1930 و1931 هي أول دراسة في الاتحاد السوفيتي تهدف إلى معرفة الفروق في الخصائص النفسية بين الناس الذين ينتمون إلى بيئات ثقافية متفاوتة. فقد تمّت في أحد أرياف جمهورية أوزبكستان حيث كان الناس يعيشون في ظلّ ظروف اقتصادية واجتماعية متخلفة جدًا. ولقد مكّنت هذه الدراسة من الوقوف على قدرات عينة تمثل ذلك المجتمع الذي كان يضم رجالاً أميين يستخدمون في نشاطهم الإنتاجي الزراعي والرعوي البسيط أساليب بدائية. كما يضمّ نساء يعشن في عالم خاص ومغلق. فالتفكير عند أفراد العينة يحمل طابعًا محددًا وصوريًا خالصًا. وهذا ما دللت عليه تلك الصعوبات التي كانوا يواجهونها أثناء حل مسائل لا تتطلب منهم سوى القدر الأدنى من التجريد والتعميم والمرونة الذهنية والتسلسل المنطقي (Лурия A.P. , 1974). وعلى الرغم من أن عناصر تلك المسائل وموضوعاتها لم تكن غريبة عن بيئتهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من تجاوز انطباعاتهم الحسية حولها أو الصور التي كانوا يحملونها عنها إلى التعامل معها على أساس ما يجمعها أو يفرقها من صفات وخصائص مشتركة أو مختلفة. فبدل أن يضعوا الألوان في فئات تجمع كل واحدة منها تموجات اللون وتدرجاته (تدرجات اللون الأحمر في فئة وتدرجات اللون الأخضر في فئة ثانية...وهكذا)، أقاموا تقسيمهم للألوان حسب خبرتهم الحياتية الحسية، حيث فصلوا كل تدرج عن التدرجات الأخرى عن طريق ربطه بموضوع مشخص ومعروف

لديهم. فعزلوا تدرجات اللون الأخضر بعضها عن بعض لأن أحدها يمثل، حسب تصورهم، لون العشب في فصل الربيع، والآخر يمثل لون أوراق أشجار معينة...الخ (Лурия A.P., 1976).

يرى لوريا أن الخصائص النفسية الإنسانية تتكون في ظل الشروط الاجتماعية ومن خلال النشاط الذي يمارسه الناس. ولا يرى لوريا أن العوامل البيولوجية هي التي تقرر مستوى تلك الخصائص عند نوع ما من الناس. لقد سعت أبحاث لوريا إلى إبراز الدور الحاسم للأدوات والإشارات في الحياة النفسية للإنسان. والإنسان يتطور وفقًا لتطور هذه الأدوات والإشارات وذلك من خلال النشاط التاريخي الثقافي. كما واهتم لوريا وبحث الآليات الدماغية للنشاط الإنساني ووضع عددًا من الاختبارات لتشخيص الاضطرابات النفسية الناجمة عن إصابات الدماغ (عامود، 2001).

لقد لاقت أفكار لوريا إقبالا كبيرا في روسيا وخارجها وخاصة أفكاره التي تعلقت بموضوع علم النفس العصبي "النيروسيكولوجيا".

الكسي نيكولايفيتش ليونتيف والنشاط الاجتماعي (1903- 1979).

أما بالنسبة لليونتيف فقد كانت اهتماماته قريبة من اهتمامات لوريا ، وقد درس الانفعالات. وعمل مع فيجوتسكي ولوريا في معهد علم النفس بموسكو. قام لينتيف بالعديد من التجارب والأبحاث التي أسهمت في تقدم علم النفس الروسي. وقد بحث النشاطات النفسية كالتذكر واعتمد في أبحاثه على فكرة التوسيط الأداتي الإشاري الذي نادى بها فيجوتسكي. لقد ألف ليونتيف كتاب بعنوان " تطور الذاكرة، دراسة تجريبية للوظائف النفسية العليا" عام 1928.

لقد تمحورت أبحاث وتجارب ليونتيف حول المواضيع التالية :

- التطور النوعي للنفس، نشأة الحساسية بصورة خاصة.
- التطور الوظيفي للنفس، تكّون النشاط وتوظيفه.
- نشأة الوعي وتطوره.

يقول ليونتيف: "إن الطفل، لا يزج ببساطه في عالم البشر، وإنما يدخله الناس المحيطون به إلى هذا العالم ، ويشرفون عليه فيه" (Леонтьев А. Н. 1959).

ويعتقد انه من غير النشاط الاجتماعي لا يمكن ان تتكون وظائف الوعي أو سمات الشخصية الإنسانية.

الخلاصة:

إن علم النفس، مما لاشك فيه تقدم وتطور بصورة كبيرة وذلك بفضل جهود ومساهمات الكثير من العلماء والمفكرين الذين قضوا وقتًا طويلاً من حياتهم يبحثون جوانب النفس البشرية، ونجد أن عددا كبيرا من العلماء باختلاف أعراقهم وأوطانهم تمكنوا من بناء مفهوم عام لعلم النفس ومحكات لتفسير وفهم السلوك ومحاولة ضبطه. وإننا في هذا المقام إذ نشيد بمساهمة علماء النفس الروس في بناء هذا العلم وتطويره لأننا نرى أن أفكار هؤلاء العلماء لم تحصل على الاهتمام الكافي والملائم وذلك لوجود حاجز الاشتراكية ، ورغم أننا نجد اليوم توجهًا غربيًا تجاه نظريات نفسية روسية كنظرية فيجوتسكي ولوريا وغيرهم فان هذا يدل على أن حاجز الاشتراكية كان وما زال موجودًا وان كان وهميًا . إن معرفتنا لما قدمه العلماء الروس في ميدان علم النفس وخاصة الاتجاه الثقافي الاجتماعي يعطينا القدرة على مراجعة نظريات نفسية قائمة، قد تكون بنيت على الفردية وأغفلت الجوانب الاجتماعية، وبهذا ما زالت تعاني من العجز في إعطاء الحلول الملائمة لمختلف المشكلات السلوكية والنفسية وخاصة في مجال القياس النفسي.

من هذا المنطلق نجد أن الاتجاه الثقافي الاجتماعي والذي نادى به فيجوتسكي قد يكون محكًا نفسيًا ملائمًا لمجتمعنا العربي، والذي هو مبني على اثر البيئة ويعتمد كثيرًا على العلاقات الاجتماعية والثقافية وفكرة هذه النظرية بعيدة كل البعد عن الفردية. وإننا نشير في نظرية فيجوتسكي إلى الجانب التشخيصي للقدرات العقلية الذي يمكن أن يكون أساساً لبناء اختبارات تقوم على قياس ذكاء الأطفال في مجتمعنا العربي.

ببليوغرافيا

المصادر العربية

عاقل، ف. (1981). **التعلم ونظرياته**. ط5. بيروت: دار العلم للملايين.

عامود، ب. (2001). **علم النفس في القرن العشرين**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

فيجوتسكي ل. س. (1976). **التفكير واللغة**. ترجمة د. طلعت منصور. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

روبينشتين س.ي. (1989). **علم نفس الطفل المتخلف عقليًا**. ترجمة بدر الدين عامود. دمشق: د.ن.

منصور، ع. (1975). **مشكلة استعداد الذاكرة للاسترجاع**، ملخص أُطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في علم النفس، جامعة موسكو.

المصادر الأجنبية

Белинский В.Г. (1982) . Избранные педагогические сочинения. Москва.

Белинский В.Г. (1953). Избранные. Москва.

Блонский П.П.(1979). Избранные педагогические и психологические сочинения. В 2-х тт. Москва.

Выготский Л. С. (1983).Собрание сочеинений. Москва.

Выготский Л. С. (1960) . Развитие высших психических функций. — Москва.

Выготский Л. С. (1956) . Избранные психологические исследования. — Москва.

Бехтерев В.М. (1954).Избранные произведения.Л.

Бехтерев В.М.(1926). Основные Рефлексологии.Л.

Выготский Л. С. (1936) .Диагностика развития и педагогическая клиника трудного детства. Москва.

Выготский Л. С. (1935) .Умственное развитие детей в процессе обучения. Москва.

Герцен А.И. (1990) . Огарев Н.П. О воспитании и образовании. Москва.

Герцен А.И. (1954). Избранные. Москва.

Добролюбов Н.А. (1988) .Избранные педагогические сочинения. Москва.

Добролюбов Н.А. (1961) .Избранные педагогические сочинения. Москва.

Лазурский А. Ф. (1929) . Классификация личностей. Л.

Лазурский А. Ф. (1916) . К учению о психической активности. Москва.

Лазурский А. Ф. (1908) . Программа исследования личности. СПб.

Леонтьев А. Н. (1959) .Проблемы развития психики. — Москва.

Ломоносов М.В. (1991) .О воспитании и образовании. Москва.

Лосский Н.О. (1994) .История русской философии. Москва.

Лурия А.Р. (2002) . Письмо и речь: Нейролингвистические исследования. Москва.

Лурия А. Р. (1976) . Основные проблемы нейролингвистики. Москва.

Лурия А. Р. (1976) . Нейропсихология памяти. М., 1974. Т.1 .Москва.

Лурия А.Р. (1974) Об историческом развитии познавательных процессов. Москва.

Лурия А. Р. (1973) Основы нейропсихологии. Москва.

Лурия А. Р. (1966) Лобные доли и регуляция психических процессов. Москва.

Лурия А.Р. (1966) . Цветкова Л.С. Нейропсихологический анализ решения задач. Москва.

Лурия А. Р.(1963) Мозг и психические процессы. Москва.

Лурия А. Р. (1960) Умственно отсталый ребенок. Москва.

Лурия А.Р. (1950) .Очерки психофизиологии письма .Москва.

Лурия А. Р. (1947) Травматическая афазия. Москва.

Лурия А. Р. (1940) Учение об афазии в свете мозговой патологии. Москва.

Лурия А. Р. (1948) Восстановление функций после военной травмы. Москва.

Лурия А. Р. (1927) Речь и интеллект в развитии ребенка. Москва.

Мухина В.С. (2000) . Возрастная психология: феноменология развития, детство, отрочество: Учебник для студ. вузов. - 5-е изд., стереотип. - Москва.

Мухина В.С. (1999) . Детская психология. Москва.

Мухина В.С. (1980) . К проблеме социального развития ребенка // Психологический журнал. - Москва.

Мухина В.С. (1985) . Проблемы генезиса личности. - Москва.

Петровский А. В. (1967) . История советской психологии. Москва.

Петровский А.Н.(1967).Общая развития психологии. Москва.

Радищев А. Н.(1952) Избранные философские и общественно-политические произведения. [К 150-летию со дня смерти. 1802—1952] / Под общ. ред. и со вступит. статьей И. Я. Щипанова. М.: Госполитиздат, Москва.

Радищев А. Н. (1949) . Избранные философские сочинения / Под общей ред. и с предисл. И. Я. Щипанова. Л.: Госполитиздат. Л.

Рубинштейн С.Л. (1976) .Проблемы общей психологии. - Москва.

Рубинштейн С. Я. (1970) . Психология умственно-отсталого школьника.Москва.

Рубинштейн С. Л. (1959) .Принципы и пути развития психологии. – Москва.

Рубинштейн С.Л. (1957) .Бытие и сознание. - Москва.

Рубинштейн С. Я. (1970) .Экспериментальные методики патопсихологии и их применение в клинике. – М.: Медицина. Москва.

Се́ченов И. М.(1953). Избранные. Москва.

Се́ченов И. М.(1902). Предметная мысль и действительность.Москва.

Се́ченов И. М.(1893). О щелочах крови и лимфы.Москва.

Се́ченов И. М.(1891). Физиология нервных центров.Москва.

Се́ченов И. М.(1878). Элементы мысли. Москва.

Ушинский К.Д. (1988) . Педагогические сочинения: В 6т. Москва.

Чернышевский Н.Г. (1983) .Избранные педагогические сочинения. Москва.

Ярошевский М.Г.(1974). История психология . Москва.

Ярошевский М.Г., (1974) .Анцыферова Л.И. Развитие и современное состояние зарубежной психологии. Москва.

Ярошевский М.Г. (1974) .Психология в XX столетии. Москва.

תקציר:

הפסיכולוגיה נולדה והתפתחה במערב. רוב התיאוריות הפסיכולוגיות נבנו ע״י חוקרים מערביים ואמריקאנים. הפסיכולוגיה הרוסית לא זכתה להכרה מעמיקה בעולם ובמיוחד במערב, זה היה על רקע סיבות שונות ומהן היה קיומו של המשטר הקומינסטי, שאסר על מספר גדול של חוקרים ופסיכולוגים רוסים להביע את דעתם בתחום הפסיכולוגיה בלי להיות כפופים לו. הרבה תיאוריות לא יצאו לאור בגלל סיבה זו. חוקרים כמו סיתשינוף, ביכתיריף, ויגוצקי, לוריה, תשירנושופסקי ואחרים. התיאוריות המערביות הדגישו יותר על האינדיבידואליזם בהתערבויות הפסיכולוגיות ובהתפתחות הקוגניטיבית, בניגוד לתיאוריות הרוסיות שהבליטו יותר את הקולקטיביזם באישיות האדם והתפתחותו. דוגמה לשוני זה, יכולה לבלוט בשיח שהתפתח בין הפסיכולוג השוויצרי הידוע פיאג׳ה והפסיכולוג הצעיר הרוסי ויגוצקי, פיאג׳ה הבליט את האינדיבידואליזם בהתפתחות הקוגניטיבית של הילדים לעומת זאת ויגוצקי יותר מסתמך על הקולקטיביזם בהתפתחות קוגניטיבית של ילדים.

לדעתי התיאוריות שפותחו ע״י פסיכולוגים רוסים, שהבליטו את הצד החברתי היסטורי, יכולות לעזור לנו כחברה ערבית קולקטיבסטית לפתח רעיונות וכיוונים לטיפול בהרבה מהבעיות הפסיכולוגיות שמאפיינות התרבות ועד היום הפסיכולוגיה המערבית הישנה והמודרנית מתקשה למצוא מענה להן.

המאמר הזה יעסוק בהתפתחות הפסיכולוגיה הרוסית מתקופת האימפריה הרוסית והמשטר הקומינסטי עד היום, במטרה לעלות למודעות את המאפיינים הייחודיים שלה.